من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ــ زائر الفجر ..

تسلّلت أضواء الشفق الخافتة من المشرق ، لتزيح جزءًا من أستار الليل الساكن ، من خلف تلال (غرناطة) الخضراء ، وربّتت فى حنوّ على غيمة صغيرة ، تسبح فى سماء (الأندلس) ، قبل أن تحتضن السماء بذراعين مضيئتين ، معلنة مولد شمس يوم جديد ، من أيام العرب فى (الأندلس) ..

ومن بعيد بدا وقع حوافر جواد يقترب ..

جواد عربى أشهب قوى ، ازدان بسرج فضى ، يستقرّ فوقه فارس ملثّم ، يقبض على عنان الجواد بيد حديدية ، ويلكزه بكعبيه ، فى مزيج مدهش من الرفق والحزم ، جعل الجواد يخضع له ، ويستجيب لندائه الصامت بالإسراع نحو هدف لاح فى الأفق ..

نحو معسكر (فارس) ..

(فارس الأندلس) ..

وعلى الرغم من صمته ولثامه ، كانت عينا الفارس تشيان بنبل المحتد ، وبشىء غير قليل من القلق والتوتر ، يسرى فى نفسه ، ويجرى فى عروقه مجرى الدم ..

أستلّ سيفه فى براعة وسرعة
وأمسك عِنان الجواد بيسراه ، ووضع
ذِبابة سيفه على عنق راكبه ..

ولم يكد ذلك الفارس يلمح المعسكر ، حتى زاد من سرعة لكزه لباطن جواده ، مستحثًا إياه على الإسراع ، فانطلق الجواد العربى الأصيل ينهب الأرض نحو الهدف ، إلى أن تجاوز سوار الأشجار العالية ، المحيط بخيام المعسكر الثلاث ، فانخفضت سرعته ، وتوقَّف ممتثلًا لجذبة عِنان من فارسه ، وراح يضرب الأرض بحافريه الأماميين فى رفق ، فى حين تنهَّد الفارس على متنه ، وغمغم فى خفوت شديد :

ـ أتعشَّم أن يكون من أبحث عنه هنا .

انبعث من فوقه صوت صارم ، يقول :

ـ هذا يتوقَّف على طبيعة من تبحث عنه .

وفى لمح البصر ، وقبل أن يتحرَّك الفارس ، هبط من فوق الشجرة التى تجاوره شاب قوى ، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، وسيم الملامح ، لم تكد قدماه تستقران أرضًا ، إلى جوار الحصان وصاحبه ، حتى استلّ سيفه فى براعة وسرعة ، وأمسك عِنان الجواد بيسراه ، ووضع ذبابة سيفه على عنق راكبه ، مستطردًا فى حزم :

ـ ويتوقَّف أيضًا على جواب سؤال حاسم .. من أنت ؟

على الرغم من المفاجأة وعنف الاستقبال ..

وعلى الرغم من صهيل الجواد ، الذى بوغت بذلك الذى انقضّ عليه من السماء ، فرفع قائمتيه ، وضرب بهما الهواء لحظة ، إلا أنّ راكبه لم يبد دهشةً أو ذعرًا ، وإنما تألّقت عيناه ببريق اهتمام ونشوة ، وهو يلتفت إلى الشاب ، ويسأله فى هدوء :

ــ أأنت (فارس) ؟

لم يرق هذا لـ (فارس) ، الذى يفضّل عادة الحصول على جواب لسؤاله ، فقال فى غلظة صارمة :

ــ سألتك أوّلا من أنت ؟

تجاهل الفارس ذلك السؤال للمرة الثانية ، وهو يقول بلهجة حملت نبرة آمرة ، توحى بأن صاحبها قد اعتاد إلقاء الأوامر طيلة عمره :

ــ أين الشيخ ؟

ضاعف هذا من ضيق (فارس) ، فقال فى حدة :

ــ ماذا تريد منه ؟

كان اللثام يخفى ملامح الفارس تمامًا ، إلا أن عينيه حملتا ابتسامة كبيرة ، وهو يجيب :

ــ أريد أن أهنّئه على ما صنعه بك ؛ فلقد جعل منك فارسًا حقيقيًا .. إنك تذكّرنى بوالدك

لقد طرق الفارس ذلك الناقوس ، الذى يلهب (فارس) دائمًا .

والده ..

ذلك الوالد ، الذى يجهل عنه (فارس) كل شىء تقريبًا ، إلا أنه يشبهه ..

وبكل لهفته ، سأله (فارس) :

ــ هل عرفت أبى ؟

أجابه الفارس فى اقتضاب ، لا يخلو من نبرة إعجاب واحترام :

ــ كان فارسًا عظيمًا .

هتف (فارس) :

ــ من هو ؟.. من كان ؟.. ما اسمه ؟

بدا لحظة أن الفارس سيجيب ، إلا أنه لم يلبث أن قال فى حزم :

ــ سل الشيخ .

انعقد حاجبا (فارس) فى غضب ، وقال فى حدة :

ــ ستجيبنى أنت ، أو يغوص سيفى هذا فى ..

قاطعته صيحة هادرة :

ــ (فارس) !!

لم يكد (فارس) يسمع صوت أستاذه ومعلّمه الشيخ ، حتى تراجع سيفه على الفور ، وحملت ملامحه كل الاحترام والإجلال والهيبة ، وهو يلتفت إلى الشيخ ، الذى برز أمام خيمته ، مستطردًا :

ــ ويحك يا (فارس) .. ماذا تفعل بضيفنا ؟

برز (مهاب) أيضًا من خيمته فى نفس اللحظة ، و(فارس) يجيب فى احترام :

ــ لقد تسلّل إلى المعسكر ياعمّاه ، و.....

قاطعه الشيخ فى حزم :

ــ اخفض سيفك أوّلًا ياولدى .

خفض (فارس) سيفه ، وأداره فى الهواء فى براعة ، ثم أعاده إلى غمده فى حركة سريعة ، وابتعد قليلًا عن جواد الفارس ، فى حين اقترب الشيخ فى وقار من الفارس وجواده ، وقال فى احترام :

ــ تفضّل ، على الرحب والسعة .

هبط الفارس من على صهوة جواده ، واعتدلت قامته فى اعتداد ، واتجه فى خطوات واثقة إلى خيمة الشيخ ، وتبعه الشيخ فى هدوء ، ثم أسدل أستار خيمته خلفه ، فمطّ (فارس) شفتيه ، وتمتم :

ــ هذا الأمر لايروق لى .

ابتسم (مهاب) ، وسأله :

ــ لماذا ؟

هزّ (فارس) كتفيه ، وأجاب فى ضيق :

ــ يحنقنى أن كل شىء هنا يحاط بالغموض ، فأنتم تخفون عنى حقيقة منشئى ، واسم والدى ، وحقيقة ذلك الزنجى (فهد) ، الذى يظهر ويختفى دون سابق إنذار ، ويبدو كما لو كان ملاكًا حارسًا ، وأخيرًا ذلك الزائر الغامض .

قال (مهاب) فى حزم :

ــ لاتشغل عقلك بهذا .

هتف (فارس) محنقًا :

ــ كيف ؟

ودون أن ينتظر جوابًا من (مهاب) ، صديقه ومدرّبه ، اتجه إلى جواده الأبيض (رفيق) ، ووثب على متنه ، دون سرج أو عنان كالمعتاد ، وجذب معرفته فى حزم ، فرفع (رفيق) قائمتيه الأماميتين ، وأطلق صهيلًا يشفّ عن قوته وجذله ، ثم انطلق براكبه وسط الأشجار ، ولم ينس أن يتجه أوّلًا نحو جعبة السهام ، التى التقطها (فارس) مع قوسه فى براعة ، ثم غاب الاثنان وسط ربوع (غرناطة) فتنهّد (مهاب) وقال :

— ليتك تعلم !

ثم ألقى نظرة على خيمة الشيخ ، وانهمك بعدها فى إعداد سيفه وثيابه ..

أما بالنسبة للفارس الملثم ، فلم يكد يلج خيمة الشيخ ، حتى أزال لثامه فى حركة هادئة ، وهو يسأل :

— هل تعرّفتنى ؟

انحنى الشيخ نصف انحناءة ، وهو يقول :

— ومن ذا الذى يجهل مولاى الملك .

ابتسم الملك لحظة ، ثم لم يلبث أن استعاد تجهّمه وقلقه ، وهو يقول :

— يبدو أننى أحتاج إلى فارسك أيها الوزير .

أجابه الشيخ فى وقار :

— هو رهن إشارتك يامولاى .

أومأ الملك برأسه مقدّرًا ومتفهّمًا ، وتمتم :

— أنا واثق من هذا .

ثم تنهّد ، وشبك أصابع كفيه خلف ظهره ، وسأل الشيخ :

— ألن تسألنى لماذا أحتاج إليه ؟

قال الشيخ فى هدوء :

— لاريب أنه أمر يخصّ (الأندلس) .

أومأ الملك برأسه إيجابًا ، وقال :

— ويخصّنى أيضًا .

ثم أشاح بوجهه ، واتجه نحو فرجة أستار الخيمة ، وتطلّع منها إلى الخارج لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

— لقد اختطفوا (جميلة) .

ارتفع حاجبا الشيخ ، وهو يقول :

— الأميرة (جميلة) ؟!.. أتقصد ابنتك ؟

أومأ الملك برأسه إيجابًا ، وقال فى حزن :

— نعم .. أقصد ابنتى الأميرة (جميلة) .. ذلك الملاك الرقيق ، الذى يملأ حياتى بهجة .

والتفت إلى الشيخ ، وقد التمع الدمع فى عينيه ، واستطرد فى غضب :

— اختطفها القشتاليون الأوغاد ..

تمتم الشيخ :

— ولكن لماذا ؟

مسح الملك دمعة مريرة ، قبل أن تخدعه فتنزلق من بين جفنيه ، وتهدر معها وقاره الملكى ، ثم لوّح بكفه ، قائلا :

— خدعة أخرى دنيئة من (فرناندو) و(إيزابيلا) .. لقد اختطفا ابنتى الرقيقة ، التى لم تتجاوز عامها الثامن عشر بعد ، فى بهيم الليل ، ونقلاها إلى قصرهما فى (قرطبة) ، وتركا لى رسالة ، يطالباننى فيها بتسليمهما (غرناطة) ، أو يذبحان (جميلة) بلا رحمة .

بدا الغضب على وجه الشيخ ، وهو يقول :

— ياللحقارة !

تابع الملك فى مرارة :

— أنت تعلم أننى لن أخون (الأندلس) أبدًا ، ولن يذكر التاريخ عنى أننى كنت أحد أسباب هزيمة العرب فيها ، بل سأسعى بكل جهدى وعرقى وقواى ؛ لمنع حدوث هذه الهزيمة .

سأله الشيخ :

— وماذا عن ابنتك ؟

ارتسم الحزن على وجه الملك ، وقال :

— إنها أسيرة الآن فى (قرطبة) ، بين يدى (فرناندو) و(إيزابيلا) ، ملكى (قشتالة) ، وهما لن يرحماها أبدًا ، وأصدقك القول إننا لانملك القوة الكافية الآن للهجوم على

(قرطبة) ، وإنقاذ (جميلة) بالقوة ، وإرسال كوكبة من الفرسان سيؤدى إلى النتيجة نفسها ، ولايمكننى التخلى عن ابنتى فى سهولة ، فهذا يمزِّق نياط قلبى .

رفع وجهه بغتة ، وأضاف :

— لقد درست كل الاحتمالات ، ولم أجد أمامى سوى فرصة واحدة لاستعادة ابنتى الأسيرة ، و.....

لم يكمل ، ولكن الشيخ أدرك مقصده ، فاعتدل بدوره ، وردَّد فى حزم :

— (فارس) .

وأومأ الملك برأسه إيجابًا ..

* * *

انطلق (فارس) فى ربوع (غرناطة) ، والحنق يعصف بنفسه ..

كان الغموض المحيط به يخنقه بالفعل ..

لقد نشأ فى هذا المخيم ، منذ وعت عيناه الدنيا ..

نشأ بين يدى معلِّمه الشيخ ، الذى راح يبثه العلوم والحكمة ، ويعلِّمه قواعد دينه ودنياه ، ويتحدَّث إليه بلسان الأعاجم ، حتى صنع منه ماهو عليه الآن ..

وفى الوقت نفسه كان (مهاب) يدرِّبه على فنون الفروسية والقتال ..

وها هو ذا الآن فارس ..

فارس يجهل من هو ..

إلى من ينتمي !!..

إنه لم ينس ولن ينسى أبدًا ذلك اليوم ، عندما أعطاه الشيخ تلك الحلة البيضاء والخوذة الفضية ، والنطاق والغمد والسيف ، بألوانها الخضراء ..

يومها أدرك أن ما يعدّ له طيلة عمره قد بدأ ..

وأن لحظة مولد الفارس قد حانت ..

(فارس الأندلس) ..

انتزعه من أفكاره مرأى ذلك الغزال ، الذى جفل لرؤيته ، فانطلق يعدو مبتعدًا ، ولكن (فارس) تشبّث بمعرفة جواده ، وهتف به :

— انطلق يا (رفيق) .

انطلق الجواد العربى القوى خلف الغزال ، وتخلّى (فارس) عن المعرفة ، وأمسك قوسه بيسراه ، ودفع قاعدة السهم فى وتره بيمناه ، وجذب الوتر ..

وأطلق السهم ..

إنه لا يحتاج عادة إلا لسهم واحد ..

هكذا درّبه (مهاب) ..

وفى بساطة ، حمل صيده ، وعاد به إلى المعسكر ، وفى اللحظة التى بلغه فيها ، كان الملك يغادره على صهوة جواده ، وكان (مهاب) يرتدى ثيابه كلها ، فهبط (فارس) عن جواده ، وحمل الغزال على كتفه ، وهو يقول :

— لماذا رحل الضيف الملثّم مبكرًا ؟.. كان ينبغى أن يتناول طعام الإفطار معنا أوّلًا .

أجابه (مهاب) ، وهو يحمل سرجًا :

— للضرورة أحكام .

ثم ألقى السرج على ظهر (رفيق) ، وراح يربط أحزمته حول بطن الجواد فى قوة ، فهتف (فارس) معترضًا :

— ماذا تفعل ؟.. لم يعتد (رفيق) تلك الأثقال .

أجابه الشيخ فى حزم :

— ينبغى أن يعتادها ، فليس من المستحب أن يتعرّفك أحد ، حيث ستذهب هذه المرة .

التفت إليه (فارس) ، وسأله :

— أهى مهمة جديدة ؟

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، فأشار (فارس) إلى حيث يبتعد الملك وجواده ، وقال :

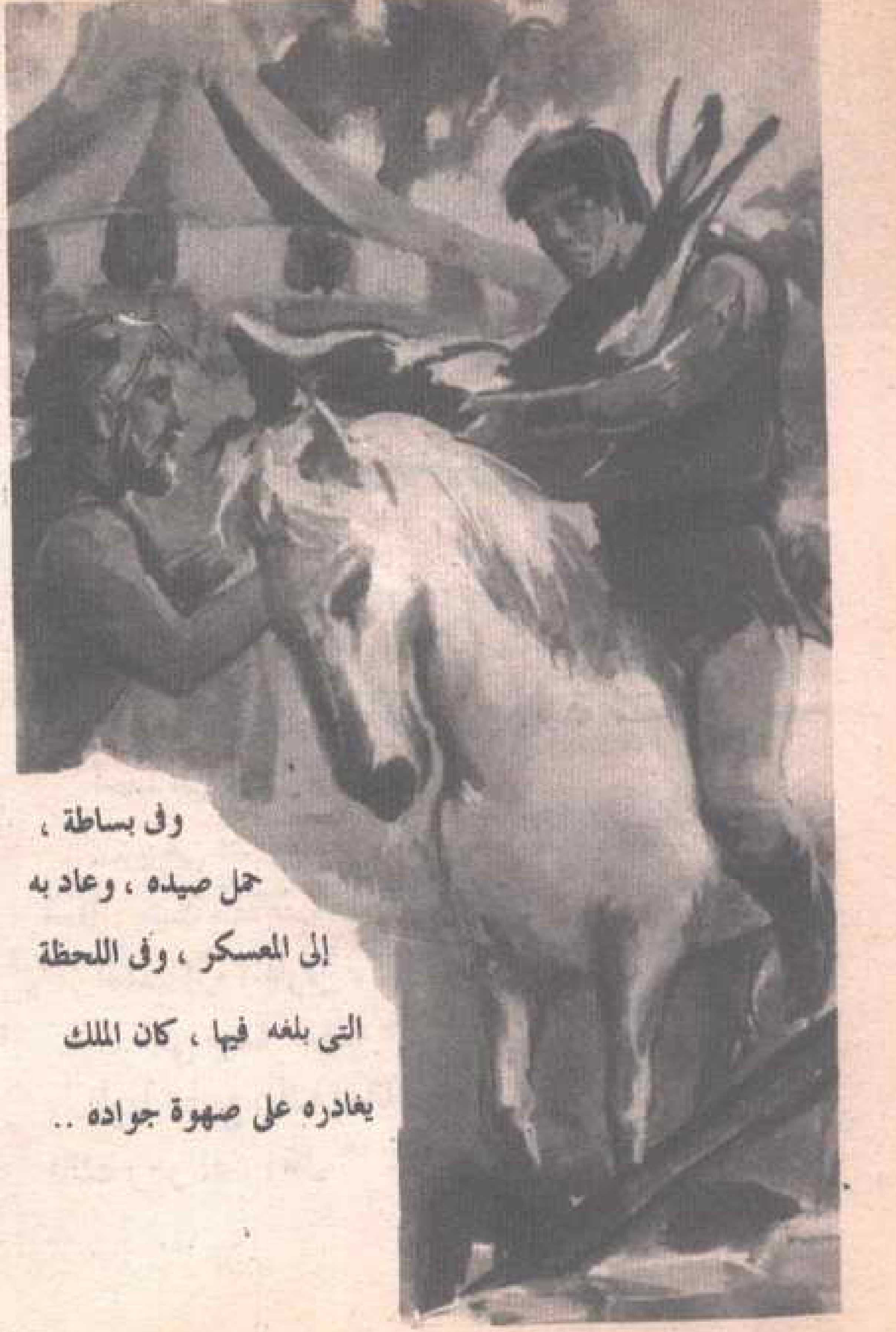

وفى بساطة ،
حمل صيده ، وعاد به
إلى المعسكر ، وفى اللحظة
التى بلغه فيها ، كان الملك
يغادره على صهوة جواده ..

ــ أهو صاحبها ؟
أجابه الشيخ فى حزم :
ــ إنها مهمة من أجل (الأندلس) .
صمت الجميع لحظة ، ثم سأل (فارس) :
ــ أين ؟
أجاب الشيخ فى حسم :
ــ فى القلب هذه المرة ياولدى .. فى قلب الأعداء ..
وكانت هذه هى البداية ..

* * *

٢ ــ قرطبـة ..

أطلق (فرناندو الخامس) ضحكة مجلجلة ، ولوّح بكأس الشراب فى يده ، وهو يلتفت إلى الملكة (إيزابيلا) ، قائلًا :

ــ فلنشرب نخب نجاح الجزء الأوّل من خطتنا .

أجابته فى غلظة :

ــ أفضل أن أشرب نخب نجاح الجزء الأخير منها ، ونحن ندخل (غرناطة) .

قهقه ضاحكًا ، وجرع كأسه دفعة واحدة ، وقال :

ــ لن ننتظر هذا طويلًا .

تطلّعت إليه لحظة ، وسألته :

ــ هل تتوقّع أن يخضع (ابن الأحمر) لتهديدنا ؟

هزّ كتفيه ، وقال :

ــ العرب كلهم من ذوى العاطفة الجيّاشة ، ومن العسير على أحدهم التخلّى عن ابنته ، حتى ولو كان الثمن هو حياته نفسها .

مطّت شفتيها ، وغمغمت :

ــ حياته ربّما ، ولكن ليس وطنه .

ابتسم ساخرًا ، وهو يقول :

ــ سنرى .

صبَّ لنفسه كأسًا أخرى ، ثم سألها فى اهتمام :

ــ ولكن أين وصيفتك الفاتنة (غالا) ؟

رمقته بنظرة غاضبة ، وقالت :

ــ هل اشتقت إليها كثيرًا ؟

هزّ كتفيه ، وقال :

ــ أتشعرين بالغيرة ؟

مطّت شفتيها قائلة :

ــ بل بالازدراء .

قهقه ضاحكًا ، وألقى محتويات كأسه فى حلقه جرعة واحدة ، وصمت لحظات ، احتقن فيها وجهه ، من أثر جرعة الخمر العنيفة ، قبل أن يسعل لحظة ، ثم يقول فى برود :

ــ ليس هذا حديث ملكة تجلس على عرش (قشتالة) و(ليون) .

قالت محنقة :

ــ وليس هذا أسلوب ملك قشتالى عظيم .. إنك تخوننى مع وصيفتى ، وليس هذا مما يليق بك .

تنهد وقال فى خفوت :
ـ (غالا) تليق بملك الملوك .
هتفت :
ـ ماذا تقول ؟
لوّح بكفه ، قائلا فى حدة :
ـ لاشىء .. كنت فقط أفكر فى صوت مرتفع .
رَان عليهما صمت مشوب بالكراهية لحظات ، ثم قالت (إيزابيلا) :
ـ لقد كلّفت (غالا) حراسة الأميرة الغرناطية .
ابتسم قائلًا :
ـ حقًا !
أجابته فى حدة :
ـ وأمرتها بقتل كل من يقترب من جناح الأميرة الأسيرة .
ابتسم فى سخرية ، فأضافت بلهجة استفزازية :
ـ حتى ولو كان الملك نفسه .
انعقد حاجباه فى غضب ، وقال :
ـ أيتها الـ .....
قطع عبارته اندفاع وصيفه الخاص داخل حجرته ، هاتفًا :

ـ مولاى .
التفت إليه (فرناندو) فى غضب ، وألقى كأسه أرضًا ، وهو يصرخ به :
ـ ماذا تريد يا رجل ؟.. كيف تقتحم جناحى الخاص هكذا ؟
شحب وجه الوصيف ، وهو يقول مرتبكًا :
ـ عفوًا يامولاى ، ولكننى أحمل خبرًا عاجلًا خطيرًا .
سأله محنقًا :
ـ ماهو ؟.. هات مالديك .. هيا .
كان من الواضح أن الملك يفرغ جام غضبه فى وجه وصيفه ، الذى تلعثم ، وخفض عينيه ، وتمتم :
ـ هناك غرناطى فى (قرطبة) يامولاى .
هتف الملك :
ـ غرناطى ؟.. أى غرناطى هذا ؟
هزّ الوصيف رأسه ، وقال :
ـ لست أدرى يامولاى .. لقد وصلتنا رسالة من جاسوسنا فى (غرناطة) ، يقول فيها إن فارسًا من فرسانها قد انطلق إلى هنا ؛ لإنقاذ الأميرة (جميلة) من قصرك ، وأنه قد بلغ (قرطبة) بالفعل هذا الصباح .

ازداد انعقاد حاجبى (فرناندو) ، وهو يقول :

— من هو ؟.. كيف يبدو ؟

عاد الوصيف يهزّ رأسه نفيًا ، وقال :

— هذا مالم يعلمه جاسوسنا يامولاى .

خيِّل للوصيف أن أذنيه قد أصيبتا بالصَّمَم ، من ذلك الصمت الرهيب ، الذى ساد المكان ، قبل أن يقول (فرناندو) :

— فارس واحد .

ثم انفجر فجأة مقهقهًا ، وردَّد مرة أخرى :

— فارس واحد ؟!.. يالسخافة هؤلاء العرب .. أتتصوَّرين هذا يا (إيزابيلا) ؟.. فارس واحد لانتزاع الأميرة العربية من قلب حصننا ؟!.. أأصيب هؤلاء العرب بالجنون ، أم أن حماقتهم قد فاقت المدى هذه المرَّة ؟

تمتمت قلقة :

— أو هى ثقتهم الزائدة فى فارسهم .

هتف بها .

— ثقتهم ؟!

ثم التفت إلى وصيفه ، وقال فى حزم :

— أغلقوا أبواب (قرطبة) .. ألقوا القبض على أى غريب يدخلها ، أو دخلها هذا الصباح .. أحكموا الحصار حول القصر .. اعتقلوا كل من تشتبهون فى أمره .

وملأ كأسه ، وجرعها فى سرعة ، قبل أن يستطرد فى صرامة :

— لن يهزمنا العرب أبدًا .. أبدًا ..

* * *

سار (فارس) الهوينى بجواده ، داخل طرقات (قرطبة) ، وراحت عيناه تدوران فى كل ماحوله ، حتى قال (مهاب) ، الذى يسير بجواده إلى جواره :

— إنها أوَّل مرة ترى فيها (قرطبة) .. أليس كذلك ؟

أجابه (فارس) :

— بلى ، وأشعر بغصة فى حلقى لرؤيتها .

قال (مهاب) فى دهشة :

— غصة ؟!

أومأ (فارس) برأسه إيجابًا ، وقال :

— نعم ياصديقى ، أشعر بغصة فى حلقى ؛ لأن كل هذا كان لنا يومًا ، ثم تركناه لهم .

تنهَّد (مهاب) وقال :

ـــ لم نتركه يا (فارس) .. لقد خسرناه .

قبض (فارس) قبضته فى قوة ، وقال فى مرارة :

ـــ وهذا أدعى للحنق .

رَان عليهما الصمت لحظات ، وهما يقطعان طرقات (قرطبة) على صهوة جواديهما ، ثم قال (فارس) :

ـــ متى تبلغ حصن (قرطبة) ؟

أجابه (مهاب) :

ـــ بعد قليل .. إنه فى نهاية المدينة ، بالقرب من سورها الخلفى .

عادا إلى صمتهما لحظات ، ثم قال (فارس) فى حنق :

ـــ اللعنة !

سأله (مهاب) :

ـــ ماذا هناك ؟

قال فى حدة :

ـــ أشعر بالضيق وأنا أقود (رفيق) بسرج ولجام .. لم أعتد هذا قط .

ضحك (مهاب) وقال :

ـــ لن تلبث أن تعتاده .

لم يبد له أن (فارس) يستمع إليه ، فقد انعقد حاجباه ، وراح يتطلَّع فى انتباه شديد إلى نقطة بعيدة ، فسأله (مهاب) :

ـــ ماذا يقلقك هكذا ؟

تحسَّس (فارس) مقبض سيفه ، وهو يجيب :

ـــ هناك كوكبة من فرسان القشتاليين تقترب ، وهم يستوقفون المارة ، ويبدو أنهم يبحثون عن شىء ما .. أو شخص ما .

تطلَّع (مهاب) إلى حيث يشير (فارس) ، وغمغم متوترًا :

ـــ ولكن لا أحد يعلم بوجودنا ، و.....

قاطعه (فارس) فى حزم :

ـــ يبدو أنك قد نسيت تعاليم الشيخ يا صديقى ، أما أنا ، فمازالت كلماته تتردَّد فى أذنىَّ : « لا تثق فى أى شىء ، فلا توجد مسلّمات فى ظل صراع .. » .

تمتم (مهاب) فى قلق :

ـــ هل تظن أنه من المحتمل أن ؟..

قاطعه (فارس) مرة أخرى :